(٢٢)
أساليب النديم فى العمل الوطنى
(الخطابة - الصحافة - العمل المسرحى)

تعددت مراحل العمل الوطنى عند النديم فبدأ حياته السياسية بالانضمام إلى الجمعيات ذات الصبغة السرية فدخل الحركة الماسونية كما دخل جمعية "مصر الفتاة" السرية، ولما أحس أن العمل من خلال هذه الجمعيات لا يتفق وطبيعته الشعبية لجأ إلى العمل الوطنى العلنى، واستخدم فى ذلك الوسائل التى أعانته على مزاولة هذا العمل وهى الخطابة والصحافة، كما طوع فن المسرح لخدمة المبادئ الوطنية فاستخدم المسرحيات لتوصيل أفكاره إلى مواطنيه. وإلى جانب ذلك فقد شجع على تأسيس جمعية الشبان بالإسكندرية لتكون سنداً للحركة الوطنية، وبما أنه قد تم معالجة انضمام النديم إلى الجمعيات ذات الصبغة السرية

وجمعية الشبان فى صفحات سابقة فإننا سنقتصر هنا على الخطابة والصحافة ثم المسرح كأسلوب من أساليب العمل الوطنى لدى النديم .

الخطابة :

لما كانت الأمية " متغلبة على السواد الأعظم " من المصريين فى ذلك الوقت حيث كان معظمهم لا يقرأ ولا يكتب وفى حاجة إلى من يوضح له المسائل فقد اهتم النديم بالخطابة كوسيلة تمكنه من نقل أفكاره إلي أبناء وطنه فأقام فى ٢٢ أغسطس ١٨٧٩ محفلاً للخطابة فى ساحة الجمعية الخيرية الإسلامية لإلقاء الخطب به يوم الخميس من كل أسبوع وفى الحفلات التى تعقدها المدرسة والمناسبات الوطنية والدينية ، وعن ذلك قال : " افتتحنا المدرسة على تلك القواعد المؤسسة بمحفل جمع الأمراء والوجهاء والوزراء والنبهاء والمحافظ ومأمور الضبطية وجملة من أمراء الجهادية ، وقمت فيهم خطيبًا وأسمعتهم كلامًا رطيبًا وأطلت والناس بين ناقد ومحقق ومصفق ، فكنت أول خطيب مصرى وقف بين الحكام الظُلام وفتح فاه بكلام . ولما اشتهرت الجمعية بالسمعة جعلت هذا المحفل فى ليلة كل جمعة وأطلقت الخطابة لكل خطيب ، وفتحت المحاورة لكل نجيب " . وأخذت ساحة المدرسة تغص بالوافدين عليها الذين أخذ عددهم فى

التزايد حتى وصل إلى خمسمائة مستمع فى كل اجتماع، وكانت خطب النديم فى هذا المحفل ظاهرها الإصلاح الاجتماعى والثقافى وباطنها تنبيه الأذهان إلى ما وصلت إليه البلاد من سوء حال، وأسباب تأخر الشرق وتقدم الغرب كما كانت "مصبوغة بدم الغيرة الوطنية، تمحو فتور الإنسانية"، وقد نشرت بعض الصحف هذه الخطب فى صفحاتها الأولى.

كما أخذ النديم يتنقل بين البلاد لتحريك أفكار الناس فيرتقى منابر المساجد ويقف فى كل محفل، ويخطب فى كل ناد حيث يرتجل الكلام ارتجالاً، ويتدفق فيه تدفقًا، يجلس إلى الفلاحين فى مجتمعاتهم فيبذر فيهم بذور الثورة.

ولما كانت الخطابة فى ذلك الوقت مقصورة على خطباء المساجد ووعاظها وفى معظمها عبارات دينية متكررة ومحفوظة تتلى على مسامع العامة دون أن تحرك القوى الكامنة فى النفس فقد حاول النديم تغيير منهج هذه الخطب لأهميتها فى نشر الوعى الوطنى وتحويل المجتمع - خصوصًا الفلاحين لأنهم قاعدته الأساسية- إلى قوة وطنية ضاربة، فكتب مقالاً تحت عنوان "ألسن الخطباء تحيى وتميت" ذكر فيه أن الخطابة مهمة لتنوير العقول حيث هى بمثابة الغذاء للبدن على مر العصور، ثم ذكر أن خطبة الجمعة فرضت فى الإسلام لأمر تغيب عن كثير من الناس

حكمته ، وهو أن يقف الخطيب بين قومه وقفة الخليفة الآمر الناهى ، فيقص على الرعية ما ورد عليه من الأخبار ، وما يرجوه من الإصلاح ، ويوضح لهم أحوال البلاد وأحوال من بعد عنهم من إخوانهم المؤمنين لتكون الأمة على علم بأحوالها فى سائر بلادها حيث يكون فى هذا من النصح والوعظ والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ما لا ينكره إلا مقيد بديوان أو مربوط فى بعض وريقات صنفها غيره ، ثم تحدث عن أهمية خطبة الجمعة فقال إن أمة تجتمع كل أسبوع فى ساعة واحدة فى سائر أنحاء بلادها ، وتسمع من حوادثها وغوامض سياسة خلفائها ما يقف به كل فرد على أحوال البلاد وسيرها وتقدمها لهى أمة جديرة بالتقدير ، وذكر الخطباء أن الخطابة لم تكن فى الإسلام قاصرة على ذكر الموت والزهد والتحذير من الدنيا وزخرفها كما يحدث الآن ، بل كانت تتضمن أخبار الأمة وحوادثها لأنها بمنزلة الجرائد ودعا إلى أن يتبرع الأعيان بمبلغ من المال يخصص لنشر الخطب الأدبية والسياسية ، كما أعلن عن استعداده لكتابة خطبة فى كل أسبوع تتناسب مع الأحوال ثم تطبع وتنشر فى سائر أنحاء القطر لتنبه الأفكار ، وتعرف الأمة قدرها وما تحفظ به نظامها بين الأمم ، وطلب أن يجتمع الأعيان ، ويعرضوا ذلك على ديوان الأوقاف ليتمكنوا من العمل بالخطبة . وقد وضع النديم نموذجًا لخطبة

يمكن السير على منوالها تحدث فيها عن أهمية الاتحاد وحث على الائتلاف وحذر من الاختلاف وطالب بالابتعاد عن الظلم والبغى فى معاملة الآخرين والتمسك بالدين مع عدم التعرض للأديان الأخرى والابتعاد عن التهور لأن ذلك يجلب الشر للأمة، وذكر بحقوق النزلاء وعدم الإساءة إلى الأجانب . بهذه المعانى أراد النديم أن تسير خطبة الجمعة لتوضح للشعب ما يمكنه من السير فى الطريق السليم لأنها تعد بمثابة إذاعة محلية وطنية .

وقد برز نشاط النديم الخطابى بعد اتصاله بالعرابيين، ويبدو أن من أسباب قوة تأثيره فى الناس بخطبه أنه كان يندمج تمامًا وينفعل بها، كما كان لديه القدرة على تصوير مآسى الفقراء حيث عاشها هو بنفسه. أما عن دوره الخطابى خلال أحداث الثورة العرابية فبعد حادث قصر النيل جاءت الوفود لمبايعة عرابى فاستغل النديم ذلك فى إبراز مواهبه الخطابية، فخاطب عواطف الناس وحضهم على التكاتف والاتحاد، وبين لهم أحوال البلاد فى أسلوب مؤثر، كما وضح لهم أضاليل الإفرنج ومفاسدهم حتى جعل مستمعيه على استعداد لبذل الروح والمال فى سبيل الوطن .

وفى أثناء مظاهرة عابدين وقف النديم خطيبًا بين الجنود فكان

كما يذكر عرابى " ثانى اثنين فى حفظ قلوب الرجال من الزيغ والارتجاف " . كما كان له موقف بارز فى وداع آلاى عبد العال حلمى إلى دمياط حيث وقف خطيبًا موجهًا حديثه " إلى حماة البلاد وفرسانها " مشيدًا بشجاعتهم موضحًا واجبهم فى الدفاع عن البلاد . وقد ألقى النديم خطبة فى وداع عرابى عند سفره بآلايه إلى رأس الوادى فى ١٨ أكتوبر ١٨٨١ فقال: "رأينا المشنوق من أهلنا والمصلوب والمذبوح والحريق والموضوع على الخازوق والمشرد والمغرب والمنفى والمسجون والمنهوب والمسلوب ولا ذنب لنا فى هذا كله إلا عدم المحافظة على البلاد، ثم رأينا الدور الثانى فشهدنا جنازة المسموم والمخنوق وودعنا المنفى، ولا جناية لهؤلاء إلا المطالبة بحقوق الأمة . ثم وصلنا إلى الدور الثالث فرأينا مساعدة الأجنبى وإكرامه وتكثير العطية وتسليمه أزمَّة الكثير من أشغالنا وإذلال الوطن، وضياع حقه وتركه فى زوايا الإهمال فوقفنا عند هذا الحد وسعينا فى طريق الاتحاد وجمع القلوب، وأعربت الجيوش عن ضمائرها، وترجمت الحمية عبارتنا ونادى الجند المظفر المنصور بحقوق الأمة" .

لقد وقف النديم خطيبًا يعبئ مشاعر الناس ويعبر عن أفكارهم فى أسلوب واضح استثار به حماسة مواطنيه، ولما سافر النديم إلى الشرقية مع عرابى جعل منها مكانًا خصبًا لخطبه .

وحينما استعدت البلاد لانتخابات مجلس النواب طاف النديم بالأقاليم يخطب فى الناس موضحًا لهم أهمية اختيار الأصلح. ونتيجة لخطبه المؤثرة التى أيقظت شعور الأهالى خشى شريف باشا مغبة الأمور فحاول الترصد للنديم والتخلص منه.

كما كون النديم فرقة من تلاميذه الذين علمهم الخطابة وجعل منهم فرقة "دعاية" تطوف معه الأقاليم لتساعده فى نشر دعوته مستغلاً فى ذلك فرصة إيجاد أى تجمعات لتوضيح مقاصد الحركة الوطنية فكان له المواقف المشهودة والأيام المعدودة، وحتى الأفراح فقد استغلها النديم فكان الناس يسمعون وصلة من الغناء ثم خطبة من النديم حتى شاع عن محمد عثمان المغنى الشهير فى ذلك الوقت أنه إذا سئل فى أى فرح تغنى الليلة كان يقول: "فى الفرح الفلانى مع عبد الله النديم".

وعندما تألفت وزارة محمود سامى البارودى وأعلنت أن من حق مجلس النواب الإشراف على الميزانية شارك النديم البلاد فى بهجتها حيث خطب فى وفود المهنئين متحدثًا عن الحرية وأهمية الائتلاف والتحالف والعدل والاستقلال والتعاون فأشعل القلوب بالحماسة والوطنية وسيطر على عواطف الناس بفصاحته وطلاقة لسانه. وحينما أقام الضباط حفلاً بسراى قصر النيل لتهنئة البارودى برئاسة مجلس النظار وعرابى بنظارة

الجهادية قام النديم وألقى خطبة فى ثمرة الاتحاد وأهمية التحالف وحب الوطن والتغنى بأمجاده واستمر فى ذلك حتى الصباح ، كما افتتح النديم الحفل الذى أقامه الحزب الوطنى فى جمعية المقاصد الخيرية فى ١٨٨٢/ ٢/ ١٢ ثم علق على أحاديث الخطباء أربع مرات متخذًا من موضوعاتهم مجالات جديدة للحديث ، ولما انتقلت هذه الاحتفالات إلى الأقاليم حيث عقد بعض الأعيان الاجتماعات وأقام بعضهم الولائم للعرابيين كان النديم نجم هذه الاحتفالات .

ولما كشفت مؤامرات الشراكسة ألقى النديم خطبًا تناولت ذم الشراكسة والتنبيه على سلامة عرابى ، وفى أثناء الأزمة بين الخديو والوزارة نتيجة المذكرة المشتركة فى ١٨٨٢/ ٥/ ٢٥ توجه النديم إلى الأزهر وجعل من منبره مكانًا لتوضيح الأمور فخطب فى رجاله ملهبًا حماستهم حتى أحاطوا به وهم ينادون " اللائحة مرفوضة " ، كما أفتى بعض المشايخ بتكفير الخديو ، وبعد أن أتم النديم مهمته بالأزهر توجه إلى الإسكندرية المحاصرة بالأساطيل يخطب فى شوارعها ويقود المظاهرات الشعبية ، كما عقد اجتماعًا ضم نحو عشرة آلاف شخص نادى فيه برفض المذكرة المشتركة وهاجم موقف الخديو ، واتهمه بالخيانة ، ولما حضرت بعثه درويش إلى القاهرة وأشيع أن السلطان أرسل البعثة للحث

على قبول المذكرة المشتركة عقد النديم بالإسكندرية اجتماعًا لنحو عشرة آلاف شخص تكلم فيه ساعتين ضد المذكرة، كما تحدث عن عدم كفاءة الخديو للحكم ثم استمر فى حملته الدعائية وأرسل تلاميذه إلى المديريات يخطبون فى الناس ويطلبون منهم كتابة العرائض احتجاجًا على التدخل الأجنبى، وأرسلها إلى درويش باشا .

وعندما أساء درويش معاملة علماء الأزهر عقد النديم اجتماعًا بالمكان المعد للصلاة بالجامع الأزهر، وخطب فى جمع تجاوز أربعة آلاف شخص حمل فيه على البعثة التركية والخديو حملة مؤثرة كان لها أكبر الأثر فى النفوس، مما هز مركز درويش وجعل المجتمعين ينادون برحيله ولو بالقوة .

وعندما قامت الحرب بين العرابيين والإنجليز قام النديم بتعبئة الشعور الوطنى وظهرت مواهبه الخطابية حيث كان قديرًا على اللعب بعواطف الناس فأسرع إلى الأزهر مشعلاً حماسته لمناصرة الثورة حتى أفتى بعض المشايخ بتكفير الخديو لانحيازه إلى أعداء الوطن. ثم أخذ يجوب مدن البلاد وقراها لحفز الهمم فى مواجهة أعداء الوطن والدين فكان لخطابته دوى شديد فى النفوس حيث تناقلها الناس فيما بينهم وتزاحموا على إعانة الجيش بما يلزمه .

وبعد أن انتقل النديم إلى ميدان القتال أخذ يخطب فى الجنود ويحثهم على الاستبسال فى المعركة وينتقل بين صفوفهم يلهب حماستهم، وقد وضح ذلك بقوله : " وكنت كلما مررت على أورطة أحمسها وأشجعها فلا أسمع منها إلا صوت البنادق ولا أرى إلا سرعة حركتها " . ولم يقتصر نشاط النديم الخطابى على مدة الثورة العرابية بل كان همزة الوصل بين جيل الثورة العرابية والجيل الذى حمل الراية بعد انتكاسة الثورة، فكان صاحب أول مدرسة خطابية فى العصر الحديث، حيث أوصى الشباب بأن يتقنوا فن الخطابة، وأخذ يمرنهم عليها، وخص بعنايته مصطفى كامل بعد أن وجد فيه الاستعداد وتبينت له قدرته الخطابية وطالعته من مواهبه أمارات الزعامة، فشحن عواطفه بما فى نفسه من أفكار مكبوتة سنين طوالاً، وقد ظهر أثر النديم واضحًا فى خطبة مصطفى كامل وأسلوبه، حيث اقتبس منه بعض أساليبه فى الخطابة، وكان ممن يرددون نغماته .

لقد اختلف الكثيرون فى الحكم على الثورة العرابية وعلى قيادتها، ولكن لم يختلف منهم أحد فى أن النديم كان خطيب الثورة العرابية الأول، وأنه كان خطيبًا ملهمًا يتمتع بكل الصفات التى تجعله خطيبًا مرموقًا مما دفعنا إلى البحث عن العوامل التى ساعدته على إتقان هذه الموهبة بالرجوع إلى بعض نصوص

الخطب التى ألقاها ، والمقالات التى تحدث فيها عن قيمة الخطابة حتى نصل إلى أسباب مقدرته فى هذا الفن .

وبالرجوع إلى مقاله " ألسن الخطباء تحيى وتميت " وخطبة الجمعة التى اقترحها كمنوال يمكن أن يسير عليه خطباء المساجد يتضح لنا مدى إحساس النديم بقيمة الخطابة فى توعية أبناء وطنه فى النواحى الاجتماعية والسياسية والدينية حيث أبرز أهميتها بقوله : " إنها للعقول بمنزلة الغذاء للبدن " ، كما ذكر أنه عن طريقها " تتضارب الأفكار وتتنبه الأذهان وتحيا الهمم وتتحرك الدماء " ، وهذا يوضح لنا أن الخطابة من وجهة نظر النديم ليست كلامًا منمقًا فقط ، ولكن وراءها فكرة تطرح بنبرات وأسلوب يتناسب مع جمهور السامعين . ثم تطرق النديم إلى إبراز أهمية الخطابة فى العصرين الجاهلى والإسلامى ، فذكر أن خطباء ما قبل الإسلام " لم يقتصروا فى خطاباتهم على مسائل الحرب والصلح بل كانوا يخوضون بحار الأفكار فلا يتركون ملمة إلا شرحوها ولا يذرون فضيلة إلا حثوا عليها " ، وكان من نتيجة ذلك أن أصبحت بلاد العرب " منيعة المقام " وهابتها الأمم . ثم تحدث عن دور الخطباء فى الإسلام وبين أهمية خطبة الجمعة فى المجالين الدينى والدنيوى . ثم انتقل إلى الدعوة إلى النهوض بالخطابة فى عصره فقال إن الخطابة فى الأمة بمنزلة جرائد

الأخبار. وبين لأولى الأمر الأسباب التى يلزم من أجلها النهوض بالخطابة فقال: "إن الأمية كثيرة فى بلادنا متغلبة على السواد الأعظم منا، ولو كانت الأمة قارئة كلها لاستغنت عن تغيير هيئة الخطابة بالجرائد، ولكن مطالعى الجرائد عدد قليل محصور فى دفاتر المحررين، والأميون فى ظلمات الجهالة قد ضرب بينهم وبين ما يقدمهم بسور لا باب له فترى الرجل يجهل حال المديرية المجاورة لبلاده ولا يعرف بعض بلاد قطره إلا سماعًا من الناس". لقد استغل النديم قدرته على التمكن من اللغة العربية فى إبراز مواقفه الخطابية فاستشهد بالقرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة وأبيات من الشعر لتأييد فكرته وحتى تكون حججه مقنعة ويعطى لأسلوبه مذاقًا يقبله السامعون فكان يسجع أحيانًا ويسترسل أحيانًا أخرى، وأعانه على ذلك لسانه الفصيح وبديهته الحاضرة وجرأته الفائقة فى مواجهة المواقف وإن تعددت فى المناسبة الواحدة فكان كما يذكر معاصروه خطيبًا لسنًا متوقد الذهن صافى القريحة، قوى الأداء جهير الصوت شديد العارضة لا يدانيه أحد فى بلاغته وفصاحته وتملكه لناصية القول وقوة أسره وشدة تأثيره على الجمهور يرتجل فلا يعيبه الارتجال ويفجؤه الموقف فلا يزيده إلا حسنًا، فكان خطيبًا مطبوعًا ومحدثًا من الطراز الأول شهد له بذلك العدو قبل

الصديق فقد وصفته جريدة «التايمز» اللندنية بأنه من أشد الخطباء عنفًا وإثارة .

قال عنه جمال الدين الأفغانى : " ما رأيت مثل النديم طوال حياتى فى توقد الذهن وصفاء القريحة وشدة المعارضة ووضوح الدليل ووضع الألفاظ وضعا محكمًا بإزاء معانيها إن خطب أو كتب " " وقال عنه أحمد تيمور باشا إنه كان شهى الحديث حلو الفكاهة إذا أوجز ود المحدث أنه لم يوجز . لقد كان النديم يخاطب العواطف وقل أن يأبه للعقل ، وكان أول خطيب مصرى يتقدم إلى ميدان الحرية ويقف ضد ظلم الحكام ويجهر بذلك فى الأماكن العامة يستعرض مقدرته الخطابية فى الجماعات والمجالس الخاصة والعامة ومحاورات العلماء والجهال حتى لقبته بعض الصحف بأنه " خطيب الشرق " و " محامى الوطن " و " محيى الوطنية " وأطلقت على محافله " سوق عكاظ " و " معرض باريس " ، وقد بلغ من سحر حديثه أن أنس به الخديو توفيق وهو من أعنف الثائرين عليه كما أنس به الخديو عباس الثانى أيضًا ، فكان أعظم خطيب مصرى لا فى الثورة العرابية وحدها بل فى القرن التاسع عشر كله ، وكان المقدمة المنطقية لعصر الخطابة الوطنية التى بلغت ذروتها على يد كل من مصطفى كامل وسعد زغلول .

الصحافـة :

بدأ النديم يتصل بسواد الشعب فى محاولة منه لتكوين رأى عام يقف فى وجه الظلم ، ولم يقتصر فى ذلك على الخطابة بل قدم أفكاره أيضًا عن طريق الصحافة فكتب فى صحيفتى "مصر" و"التجارة" متخذًا طريق الإصلاحات الاجتماعية والسياسية مجالاً لمقالاته ، وقد نالت هذه المقالات إعجاب الناس أولاً لأنها كانت جديدة عليهم من ناحية الأسلوب حيث أدرك النديم أن " لغة الصحافة البحتة ينبغى أن تكون غير لغة الأدب البحت كما كانت غريبة عليهم من حيث الأفكار والجرأة فى التعبير عما يجيش فى الصدور حتى إن بعض الصحف سارت على أسلوبه الجديد فى الصحافة . وبعد نفى الأفغانى من مصر وتعيين رياض باشا رئيسًا للنظار فى ٢١ سبتمبر ١٨٧٩ قبض على البلاد بيد من حديد ، وأغلقت بعض الصحف الوطنية ومنها "مصر" و"التجارة " ومع ذلك فقد زاول النديم نشاطه الصحفى بطريقة أكثر فاعلية وتأثيرًا حيث كتب فى جريدتى "المحروسة " و "العصر الجديد" بأسلوب تناول فيه الأحوال السياسية التى تمر بها البلاد بأسلوب رمزى ثم اتجه إلى إنشاء صحيفة تحمل إلى الناس أفكاره ، وتوصل إليهم رسالته واستطاع الحصول على إذن بإصدار جريدة " التنكيت والتبكيت " .

وقد صدر العدد الأول من هذه الجريدة فى ٦ يونيو ١٨٨١ وهى صحيفة وطنية أسبوعية أدبية هزلية . انقسمت الكتابة فيها إلى قسمين قسم للتنكيت بمعنى السخرية من العيوب التى لحقت بالمصريين وقسم للتبكيت بمعنى توبيخهم على ما وصلوا إليه من عيوب فى أسلوب قد يكون لاذعًا ، وقد يكون مضحكًا . وقد نجحت هذه الصحيفة ووصل نداؤها إلى أكبر عدد ممكن ، فمن كان قارئًا قرأ ومن لم يكن سمع ففهم ، حيث برزت قدرة النديم الفذة على الكتابة بالعامية ، فكانت صحيفته مؤثرة فى موضوعاتها وأسلوبها حيث تناولت آفات المجتمع الاجتماعية والسياسية بأسلوب التزم اللغة السهلة البسيطة ، كما احتوت على قوالب متعددة مثل القصص الرمزية والنوادر والزجل والمحاورات والأبحاث الهادفة . وبعد انضمام النديم إلى العرابيين وبعد أن أصبح داعيتهم الأول وأصبحت جريدته هى لسان حالهم طلب منه عرابى تغيير اسم جريدته من " التنكيت والتبكيت " إلى اسم يتناسب مع الظروف التى يمر بها الوطن واقترح عليه أن يكون هذا الاسم هو " لسان الأمة " وأن يكون موضوعها سياسيًا تهذيبيًا للذب عن حقوق الأمة والمدافعة عنها ، وقد أرسل إلى إدارة المطبوعات بخصوص هذا التغيير خطابًا قال فيه : " لدخولنا فى عصر جديد وفوات زمن التنكيت

والتبكيت اقتضى تبديل اسم جريدة التنكيت والتبكيت الأدبية التهذيبية كما استقر الرأى عليه بالممارسة مع حضرة الفاضل عبد الله أفندى نديم محررها ومدير إدارتها باسم "لسان الأمة" ولكن هذا الاسم الجديد الذى أراده عرابى للجريدة لم ينل إعجاب النديم فصدرت تحت اسم "الطائف". وعن أسباب تغيير اسم الجريدة قال النديم: "خلصنا من زمن التنكيت والتبكيت وأصبحنا فى زمن الحرية ومعرفة الحقوق، وهذا الذى قضى علينا بتغيير اسم الجريدة ومشربها فقد صيرناها سياسية ظاهرة بعد أن كنا ندمجها فى محاورات ودروس تهذيبية، وجعلناها تطالب بحقوق الأمة وتدافع عن حقوق الحكومة" كما اعتبر النديم هذه الصحيفة امتداداً للتنكيت والتبكيت فذكر أن الطائف ظهرت فى أول أمرها تحت عنوان التنكيت والتبكيت، ولكننا نرى أن الطائف كانت مختلفة عن التنكيت والتبكيت التى كان يكتب بها مقالات ومحاورات بالعامية بينما لم يوجد فى الطائف مكان لذلك حيث كانت مقالاتها تكتب بالفصحى، وفى حين كانت التنكيت والتبكيت أسبوعية صدرت الطائف فى بعض الأوقات يومية وخصوصًا فى أثناء ازدياد التدخل الأجنبى، كما أن التنكيت والتبكيت اهتمت بصفة خاصة بالإصلاح الاجتماعى بينما اهتمت الطائف بالأحوال السياسية ذات الطابع

الثورى الواضح وإن لم تهمل النواحى الاجتماعية .

وقد احتلت الطائف مكانة مهمة بين الصحف المصرية فى تلك المدة، وقامت بعض الصحف بتقريظها هى وصاحبها فتمنت لها "الأهرام" ولصاحبها التوفيق، كما ذكرت جريدة "العصر الجديد" أن جريدة الطائف "حرة النزعة مستقيمة المبادئ طيبة النشر رقيقة اللفظ دقيقة المعنى محكمة الوضع لطيفة الإشارة" ورحبت صحيفة «الإسكندرية» بصدورها وبمنهجها المفيد الذى يتبعه صاحبها، ووصفتها جريدة «مصر» بأنها موصوفة بالوطنية، وبأنها نافذة الكلام خطيرة مرعية المقام، كما دافع عنها وعن محررها "يعقوب صنوع" فى جريدته "أبو نظارة زرقاء" فقال: "السلام عليك يا سى نديم يا قرة عين قراء جريدة الطائف . الله الله على ذوقك السليم يا حاوى الظرائف واللطائف . أحلف بحب الوطن يا عم. أنى كلما أقرأ جرنالك يزول عنى الهم من حلاوة أقوالك. مقالاتك الأدبية نورت مصرنا ونبذاتك السياسية جددت عصرنا وحياة دقنك يا عزيزى من عشقى فى فصولك الفريدة باترجمها بالفرنساوى والإنجليزى!! كما نصحه فى مقال آخر بقوله : " إن الجرائد هى المرشد للأمة ولا يجوز للمرشد أن يرشد مسترشده إلا إلى طريق الصلاح والإصلاح". لقد استطاعت صحيفة الطائف أن تصبح

صحيفة الثورة الأولى ، فكانت منذ صدورها لسان العرابيين الرسمى وترجمانهم الصحيح ، لقد برزت مكانه " الطائف فى تلك الفترة حيث إن الصحف جميعها لم تبلغ مكانتها ولا خطرها حيث أصبحت كتاباتها مصدراً موثوقًا به ونقلت عنها الصحف الأخرى مقالاتها الاجتماعية والسياسية ، كما أحرزت من الشهرة ما لم تحرزه صحيفة أخرى ، وأخذت فى الانتشار والتأثير على الأفكار حتى إن بعض قرائها ذكر أن تلاوة الطائف ألذ فى الذوق من أكل القطائف " .

اقتصر النديم فى تحرير هذه الصحيفة أول الأمر على معالجة نواحى النقص الاجتماعية ، ثم انتقل إلى الموضوعات السياسية العميقة والأخبار المهمة التى تميزت بها تلك الحقبة ، ولما كانت انتخابات مجلس النواب على الأبواب قام النديم بحملة دعائية كبيرة لتهيئة أذهان الناس للحياة الدستورية ، فأخذت الطائف على عاتقها توعية المواطنين بأهمية الحياة النيابية ، وضرورة التروى فى انتخاب الأعضاء حتى يقع الاختيار على أناس فيهم المروءة والشهامة والذكاء والمعرفة وحب الوطن فيستطيعون تحمل المسئولية بأمانة . كما شاركت بعض الجرائد الأخرى النديم فى توعية المواطنين وبدأت انتخابات مجلس النواب بطريقة طبيعية وافتتح الخديو المجلس بإلقاء خطبة العرش ، وسارت

حكومة شريف تؤدى وظيفتها بطريقة ديمقراطية، كما اكتتب النواب فى الطائف بمبالغ كبيرة واختاروها لنشر آراء المجلس وتقاريره ومحاضره، وقد وافقت إدارة المطبوعات على ذلك، ونشر ذلك رسميًا بأمر محمود سامى ناظر الداخلية، وبهذه الصفة الرسمية لجريدة الطائف استطاع النديم أن يكون قريبًا من أخبار الدولة، وعلى بينة من شئونها، كما وجد العون المادى والأدبى من الجهات الرسمية ما يعينه على تخطى الصعاب والتقدم. وتطور أسلوبه فى الكتابة والخطابة طبقًا لمواقف العرابيين. وتمضى الثورة من نصر إلى نصر، والعرابيون فى مقدمتها يجنون ثمارها والصحف فى أغلبها موالية لهم، وإن لم يكن هناك صحيفة أكثر ثورية من الطائف التى أصبحت لسانًا عنيفًا يكتب صاحبها بلغة سافرة لا يخشى سلطانًا، ولا يأبه بأمير فكتب عن حياة الخديو مقالاً بأسلوب فيه الكثير من التشفى ناسبًا إليه ما حل بالبلاد من مصائب فى أسلوب عنيف خرج فيه عن أدب المناظرة وتكلم عن بؤس الفلاحين والعذاب الذى يلاقونه فى أثناء جباية الضرائب، وربما لجأ النديم إلى هذه الموضوعات ليوضح أن طلب الثوار للحكم النيابى هو ضمان للعدالة والقضاء على الاستبداد وعهوده، وبلغ من كراهية النديم للخديو إسماعيل أنه كتب لقرائه وهو على سرير المرض يعتذر عن تحرير

صحيفته "إلا ما كان من تاريخ حضرة إسماعيل باشا فإنى أتكلف بكتابته لأن نشره من ضمن علاج ما بى"، وقد أدى عنف هذه المقالات وشدة تأثيرها إلى أن أمر رئيس قلم المطبوعات وكان وقتئذ الشيخ محمد عبده بوقف هذه الجريدة لمدة شهر، وذلك طبقا لقانون المطبوعات الصادر فى ٢٦ نوفمبر ١٨٨١ حيث إنها لم ترع أدب المناظرة، ورغم ذلك فإن النديم استمر فى مهاجمة الخديو إسماعيل ثم شن حملة قاسية على الخديو توفيق بهدف الإطاحة بعرشه، كما وقف مؤيداً للحياة النيابية والدستور.

ولما قامت الحرب بين العرابيين والإنجليز أصدر النديم 'الطائف' من ميدان القتال وحولها من جريدة أسبوعية إلى جريدة يومية تدعو إلى الحرب وتستنفر الشعب إلى القتال وتحرض الجنود على الاستبسال وتلهب مشاعرهم فكتب مقالات أقرب إلى الخطب منها إلى المقالات الصحفية دعا فيها الشعب إلى النضال من أجل الوطن فقال: "يا بنى مصر.. هذه أيام الذود عن الحياض. هذه أيام يمتطى فيها بنو مصر صهوات الحماسة وغوارب الشجاعة لمحاربة عدو مصر. وكان كلما اشتد الأمر اشتد النديم فى تحمسه فكان بحق ترمومتر الأحداث فخرجت مقالاته لاستثارة الهمم والطعن فى الخديو وإنجلترا، وعن صحيفته نقلت صحف القاهرة أخبار الحرب وتفاصيلها

فضلاً عن مقالات محررها كاملة أو ملخصة تلخيصًا وافيًا، حيث كانت ممنوعة من نشر أى شىء فيما يختص بالأحوال الحاضرة دون موافقة المجلس العرفى، وكانت القيادة العسكرية توافيها بصور من التلغرافات الحربية مما زاد من أهميتها. ولم يقتصر نشاطه الصحفى على المقالات والأخبار وتنقلات الجيش، وخطورة استعداده والدعاية له، بل واجه الصحف التى استمالها الخديو لتقف بجانبه ضد عرابى فهاجمها بأسلوب عنيف وأنشأ ملاحق لصحيفته، ووقف قلمه فى كل ملحق منها على خصم من خصومه سواء أكان هذا الخصم الخديو توفيق أم واحدًا من أصدقائه أو معاونيه، وقد ازدحمت هذه الملاحق بالهجاء الشديد والأسلوب العنيف، ولما كان النديم على دراية تامة بحساسية أبناء وطنه من ناحية الشرف والعرض والدين فقد ضغط على هذه الأوتار الحساسة ونجح فى ذلك حيث أطلق على الخديو وأعوانه والإنجليز الشائعات التى تمس هذا الشعور فكان بارعًا فى إدارته للحرب النفسية، فخرج الناس يتغنون بذم الخديو والإنجليز ومن ذلك قولهم:

يا توفيق يا وش النمله
مين قال لك تعمل دى العمله
يا عزيز يا عزيز

كبه تاخد الإنجليز

ومن ناحية أخبار المعارك فقد كان النديم يصفها بالطريقة التى لا يفقد بها الشعب ثقته فى جيشه فكان أحيانًا يقلل من الهزائم وأحيانًا أخرى يقتصر على نشر التلغرافات الرسمية دون تعليق، أما إذا ظهرت بوادر انتصار للعرابيين فكان يهلل ويبالغ ويصف المعارك بيوم الملحمة.

وعلى الرغم من أن الطائف لم تصف المعارك بصدق فقد كانت سلاحًا فعالاً عبأ الشعب للقتال، وبث روح الشجاعة فى الجند، وأن ما فعله النديم كثيرًا ما حدث مثيله فى الحروب الحديثة، والمثال على ذلك ما ذكره "مونتجومرى" فى مذكراته من أنه لم يقل دائمًا الحقيقة فى أثناء الحرب حتى لا يتعرض سير العمليات للخطر.

ومع ذلك فنحن نرى أن سلاح الدعاية دائمًا ما يكون ذا حدين، فهو من ناحية يعبئ النفوس للقتال، ويقوى روح الشعب المعنوية، ومن ناحية أخرى يحجب حقيقة الموقف عنه مما يكون له نتائج غير طيبة وخصوصًا عند الهزيمة.

لقد كانت كتابات النديم فى "الطائف" خير تعبير عما كان يجيش فى صدور الناس من كراهية للخديوى وللأجانب. أما عن مجلة الأستاذ التى ظهرت عقب عفو الخديو عباس الثانى

عن النديم فقد صدر العدد الأول منها فى ٢٣ أغسطس ١٨٩٢ وكانت أسبوعية جعل النديم الكتابة فيها على ثلاثة مستويات فكانت بمثابة مدرسة يتعلم فيها فئات الشعب كافة متعلمها ومتوسطها وجاهلها . وقسمها كالآتى :

١) مقالات علمية وطنية بأسلوب رصين كتبت للمثقفين من القراء وقصد بها أن تكون امتدادًا لمجلة العروة الوثقى .

٢) مقالات بأسلوب مبسط كتبت لأنصاف المتعلمين وتلاميذ المدارس وهى قريبة إلى العامية ، وتحتوى على دروس للتلاميذ ترمى إلى تهذيب الأخلاق وتوسيع المدارك .

٣) مقالات ومحاورات باللغة العامية التى يعرفها غالبية الشعب لتوضيح الأمور لهم فى شكل حوارى بين أحد أبناء البلد أو بناتها والنديم ، بهدف تهذيبهم وإظهار عيوبهم وترقية أفكارهم ، وقد صور النديم فى هذه المحاورات أدواء المجتمع ، ووصف لها الدواء . مثال ذلك محاربته للعادات السيئة مثل شرب الخمر فى المحاورة التى كتبت تحت عنوان "حنيفة ولطيفة" أو محاورة النديم عن أهمية التعليم وضرورة العناية بالنظافة تحت عنوان "نديم وحافظ" ، أو حديثه عن العدالة الاجتماعية تحت عنوان "سعيد وبخيته" .

لقد أدرك النديم أن تهذيب الشعب وإصلاح عيوبه هو

الخطوة الأولى فى سبيل النهضة والتقدم، فنقده كمصلح اجتماعى يهدف إلى الإصلاح فكان رد فعل كتاباته فى الأعداد الأولى من الأستاذ التأثير الكبير لدى أفكار الأمة على مختلف نحلها . انتشرت مجلة الأستاذ انتشاراً فاق ما كان متوقعًا حتى أصبحت أوسع الجرائد الوطنية انتشاراً، فقد كان يطبع منها ثلاثة آلاف نسخة كأكبر جريدة يومية فى ذلك الوقت مع أن عمرها لم يطل أكثر من عشرة أشهر، فكان العامى يشتريها وهو لا يعرف القراءة ثم يعطيها لقارئ يقرؤها له، وقد حاول النديم مرة أن يحررها كلها بالفصحى فأتته رسائل احتجاج كثيرة تطالبه بالعدول عن ذلك والرجوع إلى كتابة بعض الفصول بالعامية " لينتفع بها النساء والأطفال والعامة، لأن فصوله التهذيبية فعلت فى نفوس العامة والخاصة ما لم تفعله الخطبة ولا الوعظ، كما أن فصوله العامية نبهت كثيراً من الأفكار لمطالعة الجرائد السياسية والعلمية "، ونظراً إلى احتجاجات الكثير من الناس ومطالبتهم للنديم بأن يخصص لهم بعض الفصول بالعامية نزل على رأيهم فأعاد جريدته كما كانت فصيحة وعامية معًا .

والجدير بالذكر أن النديم لم ينتقد فى أوائل أعداد مجلته الاحتلال علانية بل كان ذلك من طرف خفى حتى وقعت أزمة الانقلاب الوزارى فى يناير ١٨٩٣ فكانت هذه الحادثة بمثابة الحد

الفاصل بين حذر النديم فى كتاباته فى الميدان السياسى ومناصرة الحركة الوطنية ومؤازرة الخديو عباس الثانى وإثارة العواطف القومية ضد الاحتلال، وبدا ذلك واضحًا فى مقاله الطويل الشديد اللهجة الصادر فى ١٧ يناير ١٨٩٣ تحت عنوان "لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا"، فقد وضح النديم فى هذا المقال ما حدث فى البلاد من تغيرات اجتماعية وسياسية نتيجة للتغلغل الأجنبى والاحتلال الإنجليزى، فكتب عن أساليب الاستعمار ووصف حالة الغرب وحالة الشرق وندد بجشع الغربيين ومحاولتهم إفساد قيم وأخلاق الشرقيين كما ندد بغفلة الشرقيين واستكانتهم ودعا إلى الالتفاف حول الخديو.

بدأ النديم هذا المقال بتوضيح أسباب اختياره لعبارة "لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا" كعنوان لموضوع مقاله فقال إن أوربا كانت توجه هذه الكلمات دائمًا إلى الشرقيين كلما حاولت تبرير أفعالها، لذلك قسم المقال إلى فقرات كل فقرة يبدؤها بعرض ادعاء من ادعاءات الأوربيين سواء فى محاولاتهم الانتقاص من قدر الشرقيين أو فى سعيهم لتحقيق مصالحهم الاجتماعية والسياسية ثم يرد على كل ادعاء بالحجج والأسانيد الواضحة ويختم كل فقرة بعبارة "لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا" تحدث النديم فى الفقرة الأولى من مقاله عن ادعاءات الأوربيين بجهل

الشرقيين فى الصناعة حتى يتمكنوا من إدخال مصنوعاتهم إلى الشرق فقال : " قالت أوربا إنكم متوحشون لكونكم لا تحسنون صناعة الأثاث واللباس وإنكم فى حاجة إلى مصنوعنا ولا تصلون إليه إلا بعقد المعاهدات التجارية ، وبذا تمكنت من إدخال مصنوعها فى الشرق لتحول الثروة إليها فأماتت ما كان يصنعه الشرقيون" . ثم رد على هذا الادعاء بحث أبناء وطنه على إحياء الصناعة الوطنية وتوضيح الطريق لحماية مصنوعاتهم أمام المنافسة الأوربية بقوله : " إن كثيراً من الممالك التى لا آلات فيها استعانت بآلات اشترتها من الغير وأحيت صناعتها الوطنية ، وحتمت على أهلها شراءها لرواج صانعيها ومنعت دخول مصنوع الغير حفظاً لثروة أهلها" . ثم ندد بضعفاء العقول الذين لا يتحركون للعمل من أجل إحياء الصناعة الوطنية "لوقوعهم فى اليأس والقنوط بالمغريات ، ورجال أوربا تتعجب من تقاعدهم وتقول لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا" . وفى الفقرة الثانية من المقال تحدث النديم عن محاولات الأوربيين جر الشرقيين إلى مهاوى الرذيلة ، وإبعادهم عن حياتهم الشرقية ، وأخلاق الآباء والأجداد فقال : "قالت أوربا إن وقوفكم عند عاداتكم الشرقية وتخلقكم بأخلاق آبائكم بقاء على الهمجية والتوحش فلا بد من مجاراتنا فى حركاتنا المدنية لتساوونا فى الرتبة وفتحت لنا

البير والخمارات والمقامر وأباحت الزنا والربا ووسعت دائرة اللهو والخسران ففعل الشرقيون رغم ما وراء ذلك من ضياع الدين والملك والمجد والشرف" . وقد هاجم النديم الإنجليز لاتخاذهم المدنية الحديثة ستاراً لنشر الموبقات فى الشرق فقال : " إن الإنجليز هم الذين نشروا قانون المومسات ورخصوا للنساء أن يخرجن للبغاء تحت حماية القانون ، وهم الذين سنوا كشف الأطباء على البغايا وإعطاءهن شهادات بأنهن صالحات للزنا فهتكوا حرمة القرآن والإنجيل والتوراة " . ثم قام بتحذير أبناء وطنه من مغبة ما يحدث موضحًا لهم أن هدف أوربا من ذلك هو إفساد الأخلاق وإتلاف العقول والأجسام وضياع الدين والبلاد فقال : " وإنما هذا أشراك وفخاخ تنصب فى طريق الشرقى حتى لا يخطو خطوة وقد وقع فى حبالة أوربا .

ولما رأت أوربا أن الشرقيين لا ينتبهون من غفلتهم ، ولا يسعون فى صالح بلادهم ولا يحافظون على دينهم ولا يعرفون شرف لغاتهم ، ولا يحفظون كراسى ملوكهم ولا يهمهم ضياع أوطانهم اتخذتهم كرة تلعب بهم كيف تشاء وهى تقول لهم : لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا " . وفى الفقرة الثالثة من المقال تحدث النديم عن ادعاءات الأوربيين بأن الشرق فى حاجة إليهم حتى يتمكن من إصلاح شئونه فقال : " قالت أوربا إن الشرق فى

حاجة إلى تدخل أوربا لإصلاح إدارته وماليته وتجارته، وتهذيب أممه بالتعاليم الأوربية وأجمع رجال أوربا على جعله قسمًا مقابلاً لها، وربطوا عزمهم على ضمه إليهم الجزء بعد الجزء، والقطعة بعد القطعة على اتفاق معقود بين الدول هذا لى وهذا لك . وقد رد النديم على ذلك مناشدًا أولى الأمر بضرورة الاهتمام بالرجال فقال: "لو اهتم ولاة الأمور بالرجال ومرنوهم على الأعمال وبعثوا فيهم روح الحمية بالمحافظة على حقوقهم وترقيهم بحسب استعدادهم وساعدوهم على انتشار الصناعة والتجارة وهذبوهم بالأدبيات، وصانوهم من المفاسد العقلية وعلموهم العقائد الدينية وعودوهم على الشعائر العلمية ونبهوهم بجرائد وطنية صادقة اللهجة صافية النية . . لوجدوا أمامهم رجالاً وأى رجال ولكنهم أهملوا ممالكهم وأهدروا حقوق رعاياهم فأصبح ملوك أوربا يفخرون عليهم ويعيرونهم بما صاروا إليه من الضعف والاضمحلال ويقولون : لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا " .

وفى الفقرة الرابعة من المقال تحدث النديم عن سعى الأوربيين لتحقيق مصالحهم بينما الشرقيون لا يتحركون لمجاراتهم فقال : " إنهم يسعون فى مصالحهم واتساع ممالكهم وتجارتهم والشرقيون ينظرون إليهم نظر المغشى عليه من الموت ولا يتحركون لمجاراتهم أو لإيقاف تيار تداخلهم " . ثم انتقل للدفاع عن الدولة العثمانية

بوصفها زعيمة العالم الإسلامى والمدافعة عنه فوصفها بقوة العزيمة وهاجم الذين يرمونها بالعجز والضعف ثم حض مواطنيه على عدم التهاون فى حق الوطن محذراً لهم من محاولات الأوربيين السيطرة عليه فقال : " ولقد أذهلتنا أعمال أوربا التى لم تسمح لشرقى بامتلاك شبر من أراضيها ، وهى تخرجنا من مساكننا وتقيم فيها بلا شروط معقودة ولا حجة مسجلة ، ولكنها معذورة فإنها لم تجد من يعارضها أو يجاريها فهى لا تعترف أننا معها فى ثوب الإنسانية بل تقول : لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا " .

وفى الفقرة الخامسة من المقال كشف النديم النقاب عن الأساليب التى يستخدمها الأوربيون للتدخل فى شئون الشرقيين بحجة الإصلاح ونشر الحضارة والمدنية وتدريب الشرقيين على إدارة شئونهم فقال : "إن دولة من دول أوربا لم تدخل بلداً شرقيا باسم الاستيلاء ، وإنما تدخل باسم الإصلاح وبث المدنية ، وتنادى أول دخولها أنها لا تتعرض للدين ولا للعوائد ثم تأخذ فى تغيير الاثنين شيئًا فشيئًا " ، ثم ذكر أن هدف إنجلترا من إطلاق حربة المطبوعات هو إيجاد التناقضات بين الشعب المصرى .

كما تحدث عن تفضيل الإنجليز للأجانب على المصريين فى الأعمال كافة فقال : " هم الذين أبعدوا المصريين عن الخدمة وحشروا الغرباء فى المصالح حتى أصبح الألوف من المصريين لا

يجدون القوت" . وهاجم محاولات الإنجليز إماتة اللغة العربية فقال : " هم الذين تدرجوا لإماتة اللغة الوطنية بفرض المكافآت لمن ينبغ فى الإنكليزية لتُنْسَى لغة القرآن فُينْسىَ بها الدين . " ثم طالب أبناء وطنه بمجاورة الإنجليز وكافة الأوربيين فى أعمالهم فقال : " وما يدعوهم الأستاذ إلا إلى مجاورة الأوربيين فيما هم فيه من معرفه قدر نفوسهم والمحافظة على حقوقهم ولغاتهم وأديانهم وعوائدهم والدأب خلف الاستقلال" . كما طالبهم بالعمل الجاد والاجتهاد ، وترك التكاسل والتقاعد فقال : "مضت والله أيام التقاعد والاغترار بالترهات وصرنا بين يدى خديوى يريد أن نجارى الإنكليز فى الأعمال الإصلاحية والمطالبة بحقوقنا الوطنية ونحن عن إرادته السنية ساهون . ويجب أن نتقدم فى التجارة والصناعة والزراعة والمعارف ونقبض على أزمّة أمورنا ونحفظ عرشه المصرى بالمصريين" .

ثم قرظ الخديو عباس حلمى ولقَّبه بالهمام الحازم الصادق الوطنية المحب لجميع أجناس رعيته على اختلاف أديانهم الساعى فى منح الوطنيين حقوقهم وتمتعهم بخصائصهم الإدارية وما يحتاج فى تنفيذ إدارته إلا إلى رجال" ، ثم قال : فأى مانع يمنع المصريين من المطالبة بحقوقهم بالتظاهرات الأدبية؟ ! أصرنا أقل درجة من فَعَلة الإنكليز والغزالين الذين تعصبوا لحقوقهم

وتجمعوا لراحتهم وأذهلوا العالم بأفعالهم التى ما دخلها شغب ولا تخللها خلل؟!".

ثم حذر من المرجفين الذين يبثون الشائعات فقال: "تعودنا سماع الأراجيف من الدخلاء وتسليط الأوربيين على كل بلد نودى فيه بالمحافظة على وطنيته، ونحن نضع حجرًا فى فم هذا الدخيل قبل أن يحرك شفتيه بكلمة إغراء".

وتحدث النديم عن الوحدة الوطنية بين المسلمين والأقباط فقال: "هم فى اختلاط أهل بيت ومعاملة عشيرة واتحاد عائلة، ما جرى بينهم يومًا واقعة عدوانية مسببة عن اختلاف الدين، ولهذا لم تجد دولة من الدول العدوانية علة دينية تتداخل بها فى شأن مصر باسم راحة المسيحى والمحافظة على المعابد المقدسة وأعطاء الأقباط حريتهم فى عوائدهم الدينية بل كان ائتلاف المسلمين بهم حجابًا بين مصر وبين تلك الدعوة التى تعودتها أوربا تغريرًا وتضليلاً وفتحًا لباب الحروب بعلل وهمية". ثم ناشد أبناء وطنه تقليد عقلاء أوربا فى أفعالهم وعدم اللواذ بالاجنبى الذى سلبكم ثوب المجد، وليبقَ إلا أن يأكل لحمكم ويشرب دمكم غيظًا". كما طالب النديم بتحريك الهمم وزيادة النشاط للإكثار من الثروة فقال: "أيكفينا من الثروة أن نرى أكبر تاجر منا لا تزيد ماليته عن عشرين ألف جنيه وإذا عددنا هذا

القسم قلنا واحد اثنين فإذا انتهينا إلى التاسع وقفت بنا الأعداد، أما تتحرك الهمم الخامدة لفتح محال التجارة شركات وطنية تُجمع من سهام قليلة فتربح كثيراً وتفتح بيوتا أغلقت أبوابها أو كادت، أعجزنا عن مجاراة الأمم حتى فى هذا العمل الذى يقوم به الأميون والجهلاء الذين تبعثهم ضرورة المعاش إلى اتخاذ طرق الاتجار والاتحاد ؟ " .

ثم تحدث عن التعليم والمنهج الدراسى الصحيح الذى يجب أن يدرس للتلاميذ فقال مناشداً الآباء : "لقنوهم ما أنتم عليه من الدين قبل أن يخالفوكم. حفظوهم تاريخ بلادكم وأجدادكم قبل أن يجهلوكم. ردوهم إلى الوطنية قبل أن يحملوا سلاح العداوة"، وانتقد الآباء الذى يرسلون أبناءهم إلى المدارس الأجنبية وناشد ولاة الأمور بفتح المدارس بقوله : " أفلا يحسن فى أعينكم أن تفتحوا مدارس لأبنائكم تهذبونهم فيها وتعلمونهم وتحولون بينهم وبين الوجهة الأوربية تغرسها ببلادنا مدارس أوروبا'. ثم ناشد أبناء وطنه لتوحيد كلمتهم وخدمة وطنهم فقال : "جاهدوا أنفسكم فى توحيد كلمتكم وارجعوا بمحافلكم عن أبواب أوربا وفتنتها ، واخدموا بلادكم بظهوركم أمة واحدة واقفة على قدم الخدمة لأميرها والمحافظة على حقوقها" .

تحدث النديم عن محاولات الاحتلال التفرقة بين السوريين الموجودين بمصر والمصريين ودعا إلى اجتماع الكلمة والائتلاف فقال : " ولو اجتمعت كلمتنا وائتلفت نفوسنا وصفت بواطننا وصرفنا هذه الهمم فى حفظ الوطنيين وإعلاء كلمة الجنسين لحسدتنا المعالى ووقفت أوربا تنتظرنا بعين الإعظام والإجلال " . كما قال : " إذا شددنا أزر بعضنا وجمعنا الكلمة الشرقية مصرية وشامية وعربية وتركية أمكننا أن نقول لأوربا نحن وأنتم ، وإن بقينا على هذا التضاد والتخاذل واللياذ بالأجانب فريقًا بعد فريق حق لأوربا أن تطردنا من بلادنا إلى رءوس الجبال لتحلقنا بالبهيم الوحشى وتصدق فى قولها لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا" .

هكذا عرض النديم آراءه فى هذا المقال بطريقة واقعية وجريئة ، واقعية لأنها عبرت عن سوء أحوال البلاد وما ألمَّ بها فى ظل الاحتلال ، وجريئة حيث إن النديم لم يخش أحدًا حيث تكلم بصراحة ، وعبَّر عما سمعه وشاهده بنفسه فى أسلوب متأجج بالحرص على الوطن والحماسة له ، وكان حديثه بلغة عربية فصيحة لأن الموضوعات التى طرحها فى مقاله كانت تتميز بالنوع الجدى الذى لا تلائمه إلا اللغة الفصحى ، كما تطرق إلى موضوعات متعددة فعرضها بطريقة موضوعية فخرج المقال متماسكًا ومعبراً عما يجيش فى نفوس أبناء وطنه حيث كان

صدى لما يعانيه الشعب من آلام، وصدى لما يحدث فى البلاد من أزمات فأثبت النديم أنه يحمل بين جنبيه نفسًا أقوى من الكوارث وعزيمة لا يوهنها الفشل .

وإلى جانب ما كتبه النديم من مقالات فى الأستاذ فقد أفسح المجال للكثير من كُتاب وشعراء تلك الحقبة بالكتابة فى مجلته مما أشاع نهضة كبرى فى الأوساط الأدبية تسببت فى إثارة جماهيرية كبيرة .

ولما أحس كرومر بخطورة مقالات الأستاذ رأى ضرورة إسكات صاحبها حتى لا تحدث ثورة أخرى فى البلاد، فخرج آخر عدد من الأستاذ فى ١٨٩٣/٦/ ١٣ وهو العدد الثانى والأربعون فانتهت بذلك حياة الصحيفة كما أرسل صاحبها إلى منفاه فى يافا .

العمل المسرحى :

عرَّف النديم فن التمثيل بأنه "فن بديع يقوم على التهذيب وتوسيع أفكار الأمم وإخبارهم عن الوقائع التاريخية والتخيلات الأدبية مقام أستاذ وقف أمام تلامذته يلقنهم العلم بما تألفه نفوسهم وتميل إليه طباعهم" ، وقد رجع هذا الفن إلى العرب منذ القدم ثم نقله عنهم الأوربيون عند مخالطتهم لهم فى الأندلس والشام .

والجدير بالذكر أن العرب لم يعرفوا فن المسرح والتمثيل منذ القدم كما يذكر النديم، وربما قصد بذلك المنشدين والمغنين أو رواية ابن دانيال الموصلى المسماة "طيف الخيال" التى هى من قبيل ما يسميه المصريون "خيال الظل" والسوريون "كركوز"، وليست من قبيل التمثيل، والذى يؤكد ذلك أن رواية "ابن دانيال الموصلى" بها الكثير من المجون والخلاعة والألفاظ البذيئة، والنديم يذكر أن الأوربيين هذبوا هذا الفن بعد أن أخذوه من العرب بقوله: "ولكنهم هذبوه على تمثيل الوقائع الشهيرة التى لها وقع فى التهذيب والتأديب، وكتبوا فيه الروايات الكثيرة بين حاصلة ومصوَّرة".

وعموما فإن نظرية النديم فى تاريخ الحضارة الأوربية هى النظرية التقليدية التى تعيد كل شىء إلى أصول عربية، واعتبار الشرق معلِّم أوربا وإليه يرجع الفضل فى نهضتها فى حين أن فن التمثيل يعتبر جديدًا على الحياة المصرية، فلم نتوارثه عن الفراعنة ولا عن العرب بل إن مجتمعنا المصرى لم يعرف الأدب المسرحى إلا بعد أن اتصلت مصر بوسائل الغرب الحضارية اتصالاً وثيقًا.

ذكر النديم أن الأوربيين بعد أن هذبوا هذا الفن المسرحى نقله عنهم بعض الشرقيين فقال: "وقد أخذه الآن بصورته الأخيرة

جماعة من الشرقيين منهم من أحسنه ، ومنهم من بقى تحت التمرين ، فكان من المحسنين الفريق(الجوق) الشرقى المكون من المجيد الماهر الشيخ سلامة حجازى معه المحسن أحمد أفندى أبو العدل والمتقن حسن أفندى الأنبابى وجماعة من الشرقيين يصحبهم ثلاث مشخصات شرقيات " .

ومع أن النديم لم يكن يجيد أى لغة أجنبية يستطيع بها الاطلاع على نصوص المسرحيات الأوربية فإنه استطاع أن يكتسب قدراً من الثقافة المسرحية عن طريق مشاهدته لمسرحيات " يعقوب صنوع " الذى ظل مسرحه "يعمل سنتين عرض فيهما على خشبته اثنتين وثلاثين تمثيلية من تأليفه ، إلى جانب كثير من التمثيليات التى تُرجمت عن الفرنسية ، كما تأثر أيضًا بالمسرح عن طريق الفرق المسرحية التى وفدت من الشام إلى مصر وخصوصا فرقة " سليم النقاش "وأديب إسحق" التى مثلت العديد من المسرحيات على "مسرح زيزينيا" . كتب النديم روايتين قدمهما للمسرح وهما رواية "الوطن وطالع التوفيق" و"النعمان" وقد قال عنهما ، ألفت "رواية الوطن" وبينت فيها ما ظهر وما بطن ، مما هو جار فى البلاد من الظلم والفساد . ثم ألفت "رواية النعمان" وملأتها بالبديع والبيان ، وبينت فيها فضل العرب ، وما أتوه من العجب .

ولم يوجد بين أيدينا من هاتين المسرحيتين سوى فقرات من رواية الوطن منشورة ضمن منتخبات عبد الله النديم التى جمعها شقيقه عبد الفتاح النديم تحت عنوان "سلافه النديم"، وقد كتب النديم هذه الرواية بالعامية والفصحى معًا حيث جعل كل شخصية تتحدث باللغة التى تناسبها، وكان الهدف منها هو " حث أبناء الوطن على النهوض من وهدة الحضيض إلى أوج التقدم، ورسم صورة ناطقة للمجتمع المصرى الذى أفقده الاستبداد إرادته وأماتت المصائب المتراكمة إحساسه فصور الوطنى بشخصية رمزية تنادى بالتعاون بين جميع المصريين، كما اختار شخوصا من سكان القرى وبعضها الآخر من سكان المدن ومنها من هو من فلاحى الأرض أو الصيادين أو الجهلة مثل أبو دعموم وأبو الزلفى والحاج حسين وأبو العلا والسيد على والسيد إبراهيم والحاج رزيجة وأبو رجب وعزت أفندى ومظهر وبدر وعامر وسلمى ودعد ومى والحطيئة والنابغة والعرب . وكان الشكل الحوارى لهذه الرواية عبارة عن الدعوة إلى تطوير المجتمع وما يسوده من أخلاق وعادات، فصور النديم الظلم الواقع على الفقراء وانتقد أسلوب رجال الحكومة فى جمع الأموال، وانتشار الرشوة بينهم، وأوضح للفقراء أن الإصلاح لا يكون إلا بالاتحاد وإنشاء الكتاتيب ليتعلم أولادهم فتنتشر المعارف وتعرف

الحقوق، وانتقد ما يردده البعض من أنه لا يذهب إلى المدارس إلا الأولاد المصابون بعاهة فى أبصارهم أو فقدوا أحد أطرافهم حتى يرتزقوا من قراءة القرآن على الأضرحة وفى المقابر، كما طالب النديم الفقراء بالإسهام فى إنشاء الجمعيات، وذكرهم بأنهم أصل كل شىء، وصور الأغنياء بالبخلاء الذين لا يعرفون حق الوطن كما صور رجال الحكومة بالمفسدين وامتدح الخديو فى نهاية الرواية ووضع الأمل على يديه للإكثار من إنشاء المدارس . ومع أن هذه الرواية تنقصها الحبكة الفنية فإنه يمكن القول بأن النديم اتخذ من المسرح وسيلة حاول أن يوصل من خلالها إلى الشعب رسالته ويلقنه عن طريقها المبادئ الوطنية والاجتماعية .

وتبدأ الرواية بحوار يدور بين رجلين يشكوان سوء الحال على النحو التالى :

ابو دعموم : كانت فين دى الغيبة ؟

أبو الزلفى : فى جهنم الحمره

أبو دعموم : ليه من غير شر ما أنت بخير .

أبو الزلفى : ما بار علينا ما بخير ولا .

أبو دعموم : إيه بس ما تقلش نصيبتك إيه .

أبو الزلفى : يبقى ما أنت شايف الطوافة نازلين علينا

بالشمريخ ومشايخ البلد نازلين علينا بالصرم وحاكم الخط مشرمطنا بالكرميش والمدير مكسرنا بالنبابيت لا هو الواحد بقا حديد ولا إيه .

أبو دعموم : يا دم يلهفك يا خى يبقى ما ترميش للكلب منهم بريزيه وتخلص .

أبو الزلفى : عوار يحول عينك هى كام بريزيه داللى بيطلبوه الصبح ما بيطلبهش المغرب .

ومن النص المسرحى لهذه الرواية يتضح أن النديم أنطق شخوص مسرحيته بما يتناسب مع الطبقة التى ينتمون إليها فتحدث الفلاح بلهجة أهل الريف " يبقى ما أنت شايف الطوافة نازلين علينا بالشمريخ ومشايخ البلد نازلين علينا بالصرم . . "والصياد يستعمل لهجة أهل السواحل " هى كام بريزيه" وأجرى على لسان المتعلم لغة فصحى قريبة من العامية " تعلمت شيئًا كثيرًا " كما جعل حديث الشباب من المتفرنجين بلغة ممتزجة بلغة أجنبية " بنجور يا مسيو مظهر" ، " بنجور عليك يا منشير عزت " ثم جعل الوطن يتحدث بلغة عربية فصحى ، كما خص سكان البادية بالشعر العربى الفصيح .

وبذلك استطاع النديم أن يحقق نوعًا من الواقعية فى نصه المسرحى . وقد مثل تلاميذ النديم تحت إشرافه هذه الرواية على

مسرح زيزينيا أكبر مسارح الإسكندرية فى ذلك الوقت فى حضور الخديو توفيق وكبار رجال الدولة فكان لها فى النفوس أثر كبير بعد أن نبهت الأذهان إلى العيوب الاجتماعية والسياسية فى المجتمع المصرى وما يتحمله الأهالى من المظالم والمغارم . ومع أن النديم مدح فيها الخديو فى النهاية فقد كانت تبرز الظلم الواقع على كواهل الناس وتحارب الدكتاتورية والحكم المستبد والاستسلام للأجنبى المسيطر على الأجهزة الحكومية .

وبما أن الكتابة للمسرح تحتاج إلى خبرة ودراية لا تتوافران لغير المنقطع لهذا الفن يدرسه ويروض نفسه عليه فإن للنديم العذر فى عدم إجادته فيما كتبه للمسرح ، فرواياته مزدحمة بالكثير من الشخصيات ، وقارئها لا يعرف متى دخلت هذه الشخصيات إلى المسرح ومتى خرجت ، ومع ذلك فإن استعماله للسخرية اللاذعة بقصد علاج النقائص الاجتماعية ومدى انتشار الرشوة بين رجال الحكومة كان له أكبر الأثر فى النفوس .

ويذكر البعض أن مسرحيات النديم جاءت فى صورة عظات وخطب ، وكان من الأجدر لمؤلفى هذه الحقبة أن يتذكروا أن وظيفة المسرح هى الترفيه والترويح عن النفس قبل كل شىء ، أما الخطب الرنانة والعظات القيمة فمجالها المنابر ودور العبادة .

ولكننا نرى أن الظروف التى مرت بها البلاد فى تلك الحقبة

جعلت من المسرح صدى للأحداث القائمة ، وحتمت على رجل مثل النديم أن يساير هذه الأحداث بل يطوع مسرحه لخدمة الحركة الوطنية مع التركيز على القاعدة الشعبية .

وهكذا استعمل النديم كافة الوسائل لتنبيه أبناء وطنه ، وإنقاذهم مما تردوا فيه ، وكان المسرح ضمن وسائله وكانت مسرحيته " الوطن وطالع التوفيق " صدى قويا وصادقا لما ألم بالمجتمع المصرى من مساوئ اجتماعية وسياسية .

ومما سبق يتضح أن النديم قد تأثر بالنهضة المسرحية التى بدأها يعقوب صنوع ، ثم نقل خبرته إلى الجيل الجديد الذى حمل الراية بعد انتكاسة الثورة العرابية والمتمثل فى مصطفى كامل .